موسيقى الطفل

للأستاذ محمود محمد حبيب

لقد قامت بيننا فى السنوات الأخيرة نهضة مباركة ترمى إلى إصلاح التعليم بالمدارس المصرية، ونشط أساتذة التربية فى القيام بحملة ضد النظم التقليدية العتيقة التى بمقتضاها كانت العلوم والمعارف تحشد فى أدمغة الطلبة حشداً دون النظر إلى أثر هذه العلوم فى تكوينهم، وفائدة تلك المعارف فى مستقبل حياتهم العملية.

ولقد كان طبيعياً توجيه معظم تلك الحركة إلى دور الطفولة « الذى هو أساس تكوين المرء وإعداده لحياة مستقبله » والمناداة بتعهد غرائز الطفل النفسية، وميوله الطبيعية، وجعل تنميتها وترقيتها أساساً يبنى عليه كل ما يتعلق بإعداده لمختلف أطواره القادمة.

وبالرغم من تناول كثير من المواد الدراسية أمثلة لبيان إمكان تزويد الأطفال بها بطرق مبنية على هذا الأساس فإن مادة الموسيقى لم يكن لها حظ من هذه الحركة مع كونها أقرب إلى الطفل من حيث علاقتها بغرائزه وميوله، فضلا عن اتصالها بالنفس اتصالا مباشراً. وعلى قدر درجة إحكام هذا الاتصال أو فقده يكون نصيب المرء من سعادة أو شقاء، وذلك أهم ما تعنى به تربية الطفل الحديثة.

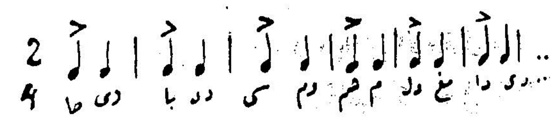
قال دارون « لو قدر لى أن أحيا حياتى هذه مرة أخرى لكنت رسمت لنفسى خطة قراءة شىء من الشعر والإصغاء إلى شىء من الموسيقى مرة على الأقل فى الأسبوع، إذ من المحتمل أن يكون فى ذلك إحياء لما خمد الآن من أجزاء المخ التى كان يمكن المحافظة على بقائها بالاستعمال. إن فقدان هذا الذوق فقدان للسعادة، وربما تسبب ذلك فى إفساد الذهن وكذا الصفات الأدبية بإضعاف الناحية الوجدانية من طبيعتنا ».

لهذا كله لم يكن الغرض الأساسى من التربية الموسيقية فى رياض الأطفال موجها إلى إكساب معلومات أو تلقين حقائق عن الموسيقى بقدر توجيهه إلى إيقاظ شعور الطفل بعذوبة الألحان وانسجام إيقاعها وجمال تركيبها ودقة تعبيرها عن مختلف العواطف والمشاعر، وذلك باستثارة غرائز الطفل الكامنة ومواهبه الفنية المستترة بطريقة مؤدية إلى حصول الطفل فى المستقبل على أدق إحساس بجمال الفن وروعته، وإلى تزويده بقدر من التجارب الموسيقية يتخذه أساساً لدراسة الموسيقى فى أدوار حياته القادمة.

إن لدى المعلم أو المعلمة فى رياض الأطفال فرصة يجب عدم إغفالها، ذلك أن قابلية كل طفل للتأثر بالأصوات والاحتفاظ بأثرها تبلغ أقصى درجاتها فى أطوار نموه الأولى لمرونة الجهاز العصبى فى ذلك الوقت، وزيادة قابلية الخلايا العصبية للتأثر من الوجهة الفسيولوجية. فى هذه المرحلة تتجلى محبة الطفل الغريزية للإيقاع الموسيقى والألوان المختلفة لتوزيع الآلات، بحيث إذا شجع على الإصغاء إلى الموسيقى والتعبير عنها أو مسايرتها ببعض الوسائل البسيطة كالحركات الإيقاعية أو الألعاب الموسيقية أو غناء الأناشيد أو العزف بالآلات الإيقاعية الخاصة بالأطفال

كالدفوف والمثلثات والطبول ونحوها ، كان ذلك أقوى باعث على التأكيد من إمكان الاحتفاظ بذلك الميل الغريزى واطراد نموه ورقيه باطراد كبر الطفل فى المستقبل .

وليس أدل على محبة الأطفال الغريزية لمسايرة ألحان الموسيقى وإيقاعها وشدة تأثرهم بها من أن ذلك يتجلى فى كثير من حركاتهم وألعابهم العادية ، فى حياتهم اليومية ، مما يتقلونه عن بيئتهم بمحض اختيارهم بما يتناسب مع بساطة طبيعتهم . فتراهم يختارون من الموازين الموسيقية أبسطها كالميزان الثنائى مثلا ، متجلية فيه الوحدات الزمنية ، متبادلة القوة والضعف على الترتيب ، مصوغة فى عبارات وألفاظ شكلية ، ولو كانت خلواً من المعنى ، كقولهم حادى بادى سيدى محمد البغدادى . . الخ فى لعبتهم المعروفة ، مع إتيانهم بإشارات من أيديهم إلى أسفل وإلى أعلى متفقة مع قوة المقاطع اللفظية وضعفها على الترتيب هكذا . . .



كما لو كانوا قد تعلموا من القواعد الموسيقية وتطبيقها ما يكفى لمعرفة الوحدات الزمنية والمقاييس الزمنية (الباطوطات) والموازين الموسيقية والتعبير عنها بإشارات اليد الدالة على القوة والضعف ، إلى غير ذلك من المعلومات التى يتوقف عليها إتيان الطفل بالحركات السابق ذكرها مع أنه فى الواقع لا يفكر فى شىء من ذلك مطلقاً .

وهناك مثال أكثر تعقيداً من ذلك بالرغم من شدة بساطته والإتيان بحركته دون أدنى تكلف ، على ما فيه من نقط عويصة يتطلب أداؤها دراية فنية كبيرة . ذلك هو تقليد صوت حركة القطار أثناء الجرى وتحريك الأيدى والأذرع حركة منتظمة ذات علاقة بحركة الأرجل حسب الوحدات الزمنية . أما المقاطع اللفظية فهى متمشية مع أرباع الوحدات الزمنية هكذا :



ومن الغريب أنهم يوفون النبرات الصوتية (Accents) حقها من القوة والضعف أو التوسط فيما بينها حسب مرتبة المقطع بالنسبة لموقعه فى المقياس الزمنى تماماً . ومع هذا فهم لا يشعرون بأدنى صعوبة كما لو كانوا قد خلقوا متعلمين قدراً كبيراً من أسرار الإيقاع الموسيقى .

نسوق هذه الأمثلة ، وغيرها كثير ، لا للأخذ بها أو الإشارة باتباعها ولكن لمجرد الدلالة على مبلغ ما هو متوفر لدى الأطفال من الاستعداد الفطرى والمحبة الغريزية للإيقاع الموسيقى وإمكان الاستفادة من ذلك إلى حد كبير جداً يمكن تصوره بالقياس إلى ما سبق ذكره من الأمثلة بأن يقال إنه إذا كانت تلك الأمثلة وغيرها بعضاً مما يمكن حصول الطفل عليه من تلقاء نفسه دون تعلم أو إرشاد مقصود ، فما بالك بما يحصل عليه بعد تعهده تعهداً مقصوداً . وهذا التعهد المقصود هو وظيفة التربية الموسيقية .